اخترنا لك :

من عيون الادب الفارسى

الدرويش والقاضى

الدكتور يحيى الخشاب

ذهب درويش فقيه ، رث الثياب ، إلى مجلس القضاة ، ليسمع مناظرة لهم ، وكان شغوفاً بالعلم ، محباً للشريعة ، فجلس فى الصف الأول ، حتى يحسن الإنصات ولا يفوته شىء . وأقبل كبير القضاة فرأى رجلا قبيح المنظر ، قذر الملبس ، قد تقدم الصفوف واتخذ فى صدرها مكانا ، فنهره متأففاً . وجاء المعرف (الحاجب) فغضب أكثر مما غضب سيده ، فأمسك بالرجل ،وجذبه من كمه ، وأمره بالوقوف وراح المعرف يؤنب الفقير الدرويش على ما اجترأ من تخطى مرتبته واغتصب من مراتب الفقهاء . أفيرقى أى رجل إلى الصدر ؟ أليس الناس درجات ، وأنهم بالفضل والقدر يتفاوتون كرامة ورتبة ؟ وكيف يسوغ عاقل لنفسه أن يجعل منها أسداً ولم يعط مخالب الأسود ؟ وظل المعرف يكيل اللوم للرجل ، ساخراً منه ، هاذئا به ، حتى تعب من كثرة ما تكلم ، واكتفى بمالقى الدرويش من خجل ، وبما أنزل به من عقوبة التقريع .

أما الدويش فقد نظر إلى القاضى ومعرفه متأوهاً زفرات كالنار تحترق وقد ترك مجلسه فى الصدر وذهب إلى آخر صف وجلس .

هيهات أن يهبط من عليائه من تأخر عن الصدر مجلسه ، ومن أوتى العزة لا يخفضه أن يكون مجلسه المقعد الأخير ،

* * *

وجاء الفقهاء فأخذوا يتحدثون ثم بدأ الجدل بينهم فيما يعرضون له من القضايا

كل يلقى بحجته ، ثم يستمع إلى رأى أصحابه . واشتد الجدل ، وحمى وطيس النقاش وكثرت لم ؟ ولا نسلم ! وامتدت الرقاب وصاحوا بلا وبنعم . تحسبهم ديوك القتال قد مدت رقابها وحددت مناقيرها ، ينقر بعضها بعضاً ، وأعملت مخالبها ليثخن كل خصمه ببالغ الجراح : تراهم وقد أفقدهم الغضب وعيهم ، فكان بعضهم يترنح من الغيظ كأنه سكران ، وبعضهم يضرب الأرض بيديه كأنه به مسا .

وأدى بهم الجدل إلى قضية لم يجد أحد منهم مخرجاً لها ولكنهم ظلوا يتجادلون لجاجاً ، حتى التجت الأصوات .

* * *

فلما أيقن الدرويش أن القضاة قد أسقط فى أيديهم ، وأنهم جميعاً قد عجزوا عن حل ما عرض لهم ، قام من الصف الأخير ، ومشى مخترقاً الصفوف كأنه أسد العرين . فلما بلغ المنصة التفت إليهم وقال : عجبت لكم ياصناديد الشريعة ويا علماء الفقه والأصول إنكم لا تدعمون بالحجة قولكم ، ولكنكم تتصايحون وتنفخون عروق رقابكم ، وما هكذا تساق البراهين ، ولا هكذا تحل القضايا . ثم عرض الدرويش لموضوع الجدل ، فصال فيه وجال ، فاقتنع القضاة برأيه ، كأنه قدأمسك القلم بيمينه ونقش به الحجج على قلوبهم .

وأقبل الفقهاء جميعاً يهنئون الدرويش بسعة علمه ،وحدة ذكائه واستقامة منطقه، وجمال طبعه . وقد نظر إليه القاضى الذى نهره وطرده واستعان بالمعرف ليزيده تعزيراً ، وقد خيل إليه أنه غارق فى الوحل لا يستطيع منه حراكا ، بينما الدرويش يسوق حصان القول سباقاً إلى الميدان .

ونادى القاضى المعرف ، ثم خلع ثوبه وعمامته ، وبعث بهما معه ، مع الإنعام والإجلال ، إلى الدرويش . معتذراً إليه بأنه لم يكن يعرف قدره فبدرت منه البادرة ، سائلا العفو عن التقصر لأنه لم يقم بخدمته بنفسه ، آسفاً لأن يراه رث الملابس رقيق الحال ، مع هذه المرتبة الرفيعة من العلم والخلق .

وأقبل المعرف فى لطف وخشوع وأدب جم فوضع العمامة فوق رأس الدرويش، ممسكاً الثوب بيديه ليعينه على لبسه . ولكن الدرويش دفع المعرف عن نفسه ،

ونزع العمامة وأعطاه إياها قائلا :

— اذهب إلى حيث جئت ولا تضع فوق رأسى قيد الغرور ، إنى أخاف على هذا الرأس أن ينوء بعبء عمامة قاضيك وقد لفت بخمسة أذرع من القماش ، اذهب فإنى أخاف على نفسى أن تملأ غروراً إذا ما لبست العمامة الكبيرة ولقبت المولى أو الصدر الكبير ، فأرى الناس صغاراً وقد يكونون أكبر منى فضلا ومكانة عند ربى . ماذا على من هذه العمامة ؟

وأى فرق يطرأ على الماء الزلال فى كأس من الذهب وضع أو فى كأس من الفخار ؟

إن العقل والحكمة أحب إلى رأسى من هذه العمامة الجميلة :

إن العالم لا يعتز بكبر رأسه وضخامة عمامته، فإن للقرع رأساً كبيراً لا عقل فيه .

ونظر الدرويش إلى القاضى الذى نهره فقال :

— لا ترفعن رأسك عالياً لأنك لبست عمامة كبيرة ، وتحليت بلحية طويلة . العمامة من قطن ، اللحية كالحشيش ينبت فى الأرض .

وليكن قدرك بقدر مالك من فضل ، ولا تكونن كزحل اتخذ بين الكواكب مكانا عالياً ، ولكنه نحس يؤذى الناس .

ألم تعرف قصب الحصير ، تراه طويلا فإذا ذقته لم تجد سكراً فيه ؟

ياصاحبى : إنى لا أراك من ذوى الفضل لأن مائة عبد يسيرون من ورائك ، إنما الفضل بالعلم والخلق الكريم .